سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ • مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ • وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ • وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ • فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ • بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ • إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ • فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ • وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ • وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ • هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ • مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ • عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ • أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ • سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ • إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ • وَلَا يَسْتَثْنُونَ • فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ • فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ • فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ • أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ • فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ • أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ • وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ • فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ • بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ • قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ • قَالُوا سُبْحَانَ

رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝
قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۝ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا
مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۝ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ أَفَنَجْعَلُ
الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ
فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ
زَعِيمٌ ۝ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ۝
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَاشِعَةً
أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝
فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ
نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا
سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾.

صدق الله العظيم

السورة مكية مبكرة ، إلا الآيات (١٧ : ٣٣ ، ٤٨ : ٥٠) فمدنية .

والمشهور أنها نزلت بعد العَلق ، فتكون ثانية السور فى ترتيب النزول بعد « اقرأ » أول الوحى . وهو الذى ذهب إليه أكثر الأئمة بنص عبارة « ابن حجر » فيما نقل السيوطى[1] . وقال « البرهان الجعبرى » فى منظومته (تقريب المأمول فى ترتيب النزول) :

اقرأ ، ونونٌ ، مُزَّمِّلٌ ، مُدَّثِّرٌ والحمدُ ، تَبَّتْ ، كُوِّرَت ، الأَعْلَى علا

ومهما يكن الخلافُ فى ترتيب نزول سورة القلم ، فهى من أوائل السور المكية المبكرة التى تهدينا إلى الجو العام فى منزل الوحى ، أولَ المبعث .

* * *

وذكر بعضهم فى أسباب نزولها أنها أو معظمها « فى الوليد بن المغيرة المخزومى وأبى جهل بن هشام المخزومى . ومناسبتها لما قبلها أنه فيما قبلها ذكر أشياء من أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع وأنه تعالى لو شاء لخسف بهم الأرض أو لأرسل عليهم حاصبًا . وكان ما أخبر تعالى به هو ما يلقنه رسول الله ﷺ بالوحى ، وكان الكفار ينسبونه مرةً إلى الشعر ومرة إلى السحر ومرّةً إلى الجنون ، فبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون ، وتعظيم أجره على صبره على أذاهم ، والثناء على خُلُقِه العظيم »[2] .

قولهم : مناسبتها لما قبلها ، يعنون سورة « المُلك » التى وضُعِت قبلها فى ترتيب المصحف . وفيه التفاتٌ إلى نَسَقِ هذا الترتيب ، لا يفوتنا معه أن سورة الملك نزلت متأخرة ، فهى السابعة والسبعون فى ترتيب النزول على المشهور ، بينها وبين سورة القلم ، على أىِّ قولٍ فى ترتيب نزولها ، أكثرُ من سبعين سورة !

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن : ١/٢٩ وما بعدها ط مصر ١٢٧٩ هـ .

(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٨/٣٠٧ وقابله على ما نقل الإمام الطبرى فى تفسيره من أسباب النزول : جـ ٢٩/١٠ .

وكونها نزلت فى الوليد أو أبى جهل لا يقتضى الاعتبار بخصوص السبب ، حيث لا قرينة تصرف إليه عموم لفظ الآية ، وأسباب النزول لا تعدو أن تكون قرائن مما حول النص ، تُعين على فهم الظروف التى نزلت فيها السورة أو الآية . على ما سبق بيانه فى تفسير سورة الضحى[١] .

* * *

« نٓ ، وَالْقَلَمِ وَمَايَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » .

وتبدأ السورة بحرف (ن) يُكتب هكذا حرفاً واحداً . ورسمُها فى المصحف الإمام على هذا ، يجعلنا نستبعد ابتداءً ما نقل الإمام الطبرى من اختلاف أهل التأويل فيه : قيل هو النون أى الحوت واحد النينان ، أو هو لوح من نور ، أو اسم للدواة . .

ويمنعه أن هذا النون يرسم ثلاثة أحرف « نون » وليس حرفاً واحداً (ن) .

وهذا الاستبعاد يعفينا من الوقوف عند ما رُوِى عن « ابن عباس ومجاهد » فى هذا الحوت الذى عليه الأرَضُون ، تحت الأرض السابعة ؛ وان الله سبحانه خلقه قبل السمٰوات والأرض ، فلما دُحِيت الأرض اضطرب الحوتُ فمادت الأرض فأثبِتَتْ بالجبال ! [٢] .

كما يعفينا من العُقد اللغوية والنحوية والصرفية فى إعراب نون ، اسماً للدواة ، وقد صرح الزمخشرى بأنه لا يدرى – ولا أدرى معه – « أهو وضع لغوى أم شرعى ؟ وهل هو اسم جنسٍ ، أو علم لنون يمنع من الصرف ؟ »[٣] .

وفى قول آخر إن (ن) اسم للسورة . وليس فى هذا القَول ما يغنى ، لأن السورة على هذا القول إنما سميت بهذا الحرف فى أولها ، كما سميت سورتا (ص ، ق) بالحرفين فى أولها .

ويبدو أن الراغب الأصفهانى ، اختار أن تكون (ن) الحرف المعروف من حروف الهجاء ، وهو ما نطمئن إليه ، فتكون سورة القلم هى أول سورة نزلت مفتتحةً بحرف

---

(١) فى الجزء الأول من التفسير البيانى . وانظر السيوطى فى الإتقان : ١/٣٥ .

(٢) الطبرى : جامع البيان ٢٩/١٠ .

(٣) الكشاف : ٤/١٢٦ .

من هذه الحروف المقطعة بفواتح السور ، وبعدها نزلت ثمان وعشرون سورة مفتتحة بهذه الحروف ، منها ست وعشرون سورة مكية ، وثلاث سور من أوائل العهد المدنى : البقرة وآل عمران ، والرعد .

ومجموع حروفها بغير المكرر منها أربعة عشر حرفاً ، هى نصف حروف معجمنا .

وقد اختلف المفسرون فى تأويلها ، وأنقل بإيجاز من أقوالهم فيها :

• إنها إشارات إلى صفاته تعالى أو أسمائه . وأصحاب هذا القول لا يكادون يجمعون على دلالات الحروف فيه ، ففى الكاف مثلا ، قيل : كافٍ ، أو كريم ، أو كبير . وفى حرف (ق) قيل : قادر أو قاهر . وفى حرف (ن) قيل : ناصر ، أو نور . . .

• وقيل هى علامات وضعها كُتّاب الوحى . ويمنعه أن تدخل هذه العلامات ، وهى من قول البشر ، فى آيات القرآن بعد البسملة .

• وقيل هى من حساب الجُمَّل . وهذا من إسرائيليات « حُيَىّ بن أخطب اليهودى » فتقول الرواية إن أخاه أبا ياسر مرّ فى رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة « الم » فأخبر أخاه حيى بن أخطب بذلك ، فمشى إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فقال : « لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيَّن لنبى منهم ما مُلْكُه وما أجَلُ أمتِه غيرك : الألفُ واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة . أفندخل فى دين نبىٍّ إنما مدةُ مُلْكِه وأجَلُ أمتِه إحدى وسبعون سنة ؟

ثم سأل : هل مع هذا غيره ؟ أجاب عليه الصلاة والسلام : نعم ، المص . فعدَّها اليهودى بحساب الجمل فإذا هى إحدى وستون ومائة سنة ، ثم عدّ « المر » فإذا هى إحدى وسبعون ومائتا سنة « وانصرف بقوْمه وهو يقول للنبى عليه الصلاة والسلام : لقد لبسَ علينا أمرُك حتى ما ندرى أقليلا ما أُعطِيت أم كثيرًا »[1] .

• وقيل هى بمثابة تنبيهات لما يكون بعدها من الحديث ، وأكثر ما يكون بعدها ذكرُ القرآن الكريم . وقد فصَّل « الفخر الرازى » هذا الوجه ، وكذلك « ابن قيم

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/١٩٤ حلبى .

الجوزية » فى (التبيان) واستوفاه « ابن كثير » فى تفسيره على وجه الاستقراء .

* وقيل إنها من المتشابهات التى استأثر الله بعلمها . وقريب منه ما روى عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرًّا وإن سر هذا القرآن فواتح السور [١] .

* واختار ابن القيم أن يكون فى افتتاح السور بها ، تنبيه على شرف الحروف وعظم قدرها وجلالتها ، إذ هى مبانى كلامه تعالى وكتبه التى أنزلها على رسله ، وأقدَرَ عبادَه على التكلم بها ، وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته [٢] .

وهذا الوجه قريب إلى مجال دراستنا البيانية ، وأقرب منه قولُ من قالوا إن هذه الحروف « ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من مثل حروفهم . . . ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التى يعرفونها فيكون ذلك تعريفاً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله » [٣] .

وقد عرضت للموضوع بمزيد تفصيل وتدبر ، فى كتاب (الإعجاز البيانى للقرآن) [٤] .

* * *

ومجىء الحرف (ن) فى (سورة القلم) المكية المبكرة ، فيه لفت واضح إلى سرِّ الحرف فى البيان المعجز . وفى السورة جدَل من المشركين فى نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وجحد لمعجزته ، وقولٌ بأنها من أساطير الأولين . فكأن هذا تمهيد للمعاجزة التى تتحداهم أن يأتوا بمثله ، واستدراجهم إلى أن تلزمهم الحجة ، بأن يعرضوه على ما عرفوا من أساطير الأولين . وإن كلماته لمن الحروف التى عرفوها فى عربيتهم ، لغة الكتاب العربى المبين . . .

---

(١) الإتقان : ٢/٣ .

(٢) التبيان : ٢٠٤ .

(٣) الإتقان : ٢/١٣ .

(٤) طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٢ . وقدمت منه بحثاً ، فى ندوة أسبوع القرآن بجامعة أم درمان الإسلامية (فبراير ١٩٦٨) ومحاضرة فى جامعة محمد الخامس بالرباط (مايو ١٩٦٨) .

وقد كانت كلمة الوحى الأولى « اقرأ » لافتة إلى آية الله الكبرى ، فى الإنسان الذى خلقه سبحانه من علق ، وعلم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم .

وبعدها نزلت سورة القلم مبتدأة بحرف (ن) لافتة إلى سر الحرف الذى هو مناط القراءة والعلم والبيان ، تنطق به منفردًا منقطعاً فلا يعطى أى معنى أو دلالة ، بل لا يكاد يخرج عن مجرد صوت ، ثم يأخذ الحرف موضعه من الكلمة فى البيان ، فيتجلى سره الأكبر .

* * *

« وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » .

قال الإمام الطبرى إن القلم معروف « غير أن الذى أقسم به ربنا من الأقلام ، القلم الذى خلقه تعالى فأمره بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة »[١] .

وأطال « ابن قيم الجوزية » فى شرح فوائد القلم وبيان عظمته ، قال : « فأقسم بالكتاب – ن – وبالقلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدَرُه وشرعُه وكُتِبَ به الوحىُ وقُيِّدَ به الدينُ وأثبتت به الشريعةُ وحفظ به العلمُ وقامت مصالحُ العباد فى المعاشِ والمعاد » .

ثم عقد فصلاً فى مراتب الأقلام فجعلها اثنى عشر قلماً ، أعلاها وأجلها قدراً قلمُ القدَرِ السابق . وقد أقسم به إعظاماً له[٢] .

ويوجِّه هذا إلى تأويلهم « وما يسطرون » بأن الضمير فى الفعل للحفَظة من الملائكة الذين يكتبون بأمر الله أقدارَ الخلائق وأعمالَهم فى اللوح المحفوظ .

وفيه قولٌ آخر ، هو أنه القلم المألوف المعتاد الذى يسطر به الناس كتاباتهم[٣] ووجهُ إعظامِه بالقسم ، أن الله تعالى هو « الذى علم بالقلم » علم الإنسان ما لم يعلم » .

والذى نطمئن إليه – والله أعلم – هو أن تكون الواو هنا قد خرجت عن معناها

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢٩ سورة القلم .

(٢) التبيان فى أقسام القرآن ، ٢٠٧ : ٢١٢ – وقد سبقت الإشارة إليه فى تفسير آية « الذى علم بالقلم » سورة العلق .

(٣) تفسير الطبرى : ١٢/٢٩ .

الأول فى القسم للتعظيم ، لملحظ بيانى[١] ، هو اللفت إلى ما عهدوا من أمر القلم والكتابة واعتمادِهما على سر الحرف ، توطئةً إيضاحية للردِّ على جدل المشركين فى كلمات الله تعالى .

والأقرب عندنا أن يكون الضمير فى « يسطرون » لمن كانوا ينقلون من العرب أساطير القدماء ويحاولون أن يُشبهوا القرآن الكريم بها ، إذ نلمح فى إيثار « يسطرون » على : يكتبون : ما يتجه بها إلى قوله تعالى فى الآية بعدها من سورة القلم : « إذا تُتلى عليه آياتُنا قال أساطير الأولين » .

ونظيره ما فى الآيات :

« وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصيلاً »
(الفرقان ٥)

« يقول الذين كفروا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين » (الأنعام ٢٥)
« لَو نشاءُ لَقلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطير الأولين » (الأنفال ٣١)
« لقد وُعِدْنا هذا نحن وآباؤنا من قبلُ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين »
(النمل ٦٨)

وآيات (النحل ٢٤ ، الأحقاف ١٧ ، المطففين ١٣) .

هم إذن ، كانوا على عِلمٍ بأساطير الأولين ، وفيهم من كان يكتبها ويتلو منها تحدياً للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، على ما روى « ابن إسحاق » فى (السيرة النبوية)[٢] . وهذه هى آيات الكتاب المعجز معروضة عليهم بلغتهم وحروفهم ، فليقابلوها على ما لديهم مما كانوا يسطرون .

• • •

والرسول عليه الصلاة والسلام فى أول عهده بالوحى ، كان فى أشد الحاجة إلى ما يثبت فؤاده ويُذهب عنه قلقَ النفس وشواغل البال . وكتب الحديث والسيرة ،

---

(١) انظر تدبرنا هذه الظاهرة الأسلوبية فى سور : الضحى ، والعاديات ، والنازعات من التفسير البيانى ، وسور : العصر والليل والفجر فى هذا الجزء .
ومعها مبحث « الظواهر الأسلوبية وسر التعبير » فى كتاب (الإعجاز البيانى) .
(٢) طبع الحلبى بالقاهرة : ١/٣٢١ .

تصف حالته النفسية حين آب من غار حراء فى ليلة القدر ، مرتعداً بادئ الحيرة والقلق ، وأفضى إلى زوجه السيدة خديجة بما رأى وما سمع فقالت رضى الله عنها : أبشر يا ابنَ عمّ واثبُتْ فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . . .

كما نقلت كتب الحديث والسيرة وطبقات الصحابة ، ما كان من تلقى « ورقة بن نوفل » لخبر الوحى الأول ، وقوله للمصطفى عليه الصلاة والسلام : والذى نفسى بيده إنك لَنبى هذه الأمة ، ولتُكذَّبنَّه ، ولتُؤذَيَنَّه ، ولتُقاتَلنَّه ولتُخرَجنَّه ! (١) .

وفى ضوء ما تواتر من أخبار عن حالة المصطفى عليه الصلاة والسلام أول عَهده بالوحى ، وما واجَه من تكذيب المشركين وحيرتهم فيما يصفونه به ، نتلو الآيات :

« مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

فندرك عمق أثرها فى تثبيت المصطفى وتقوية فؤاده ، وتهيئته لما هو بسبيل أن يحتمل من أعباء التبليغ لرسالته ، والصبر على ما يلقى من عنت المكذبين الضالين ، وسفه الوثنية القرشية العاتية .

وجمهرة المفسرين على أن جملة « بنعمة ربك » اعتراضية ، كما تقول لصاحبك : أنت بحمد الله فاضل .

وهذا أقربُ ممن تأولوه : ما أنت بمجنون والنعمةُ بربك . ذكره « أبو حيان » فى (البحر) وقال إنه تفسيرُ معنى لا تفسير إعراب .

وفيه تكلف لا يسيغه حِس العربية المرهف الذى يجلوه البيان القرآنى فى ذروة نقائه . وإنما يُفهم فى بساطة ويسر ، بالمألوف من بيان العربية فى مثل : قولك : ما أنت بفضل الله بشقى .

وقد سبق استقراء ما فى القرآن من لفظ نعمة ، مادةً وصيغةً ، فى تفسير آية التكاثر : « ثم لتسألُن يومئذ عن النعيم » وهدَى الاستقراء إلى أن القرآن يستعمل النعمة

---

(١) السيرة الهشامية ١/٢٥٤ . وعيون الأثر ١/٨٢ وفيها تخريج الحديث .

لنعم الدنيا ، ويخص صيغة النعيم بدلالة إسلامية على نعيم الآخرة[١] .

ونقف هنا عند هذه الباء فى خبر ما : بمجنون ، وقد جرى النحاة والمفسرون على القول بأنها زائدة ، فهى تعمل فى لفظ الخبر ، ويبقى الحكم الإعرابى على أصله ، يَمنع من ظهور حركته ، اشتغالُ المحل بكسرة حرف الجر الزائد .

وباستقراء ما فى القرآن الكريم من خبر ليس وما ، يلقانا اطراد وقوع هذه الباء المقول بزيادتها ، فى خبرهما المفرد غير المؤوَّل . لم تتخلف إلا فى بضع آيات لها سياقها الخاص الذى يوجه إلى الاستغناء عن الباء[٢] .

ولا يهون القول بأن الباء حرف جر زائد ، إذ مقتضى القول بزيادتها إمكان الاستغناء عنها ، وهو ما لا يؤنس إليه البيان القرآنى .

والنحويون من المفسرين ، يذهبون إلى أن الباء زائدة لتأكيد النفى[٣] .

ونقول إن الآية لا تؤخذ بمعزل عن نظائرها ، والذى نطمئن إليه ، فى هدى التدبر لما استقرأنا من هذا الأسلوب فى القرآن ، هو أن الباء تأتى فى خبر المنفى بما أو ليس ، فتجعله جحداً وإنكاراً :

« وما أنت بهادى العُمْىِ عن ضلالتهم »

« وما أنا بظلام للعبيد »

« وما اللهُ بغافل عما تعملون »

« وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل »

« وأن الله ليس بظلام للعبيد »

« فليس بمعجز فى الأرض »

« وليس بضارّهم شيئًا »

« ولستم بآخذيه »

---

(١) فى الجزء الأول من التفسير البيانى .

(٢) المسألة معروضة بتفصيل فى مبحث سر الحرف من كتاب (الإعجاز البيانى) مع الاستقراء الكامل لآياتها فى القرآن ، وتدبر سياق الآيات التى استغنى الخبر فيها عن الباء .

(٣) الزمخشرى : الكشاف ٤/سورة القلم .

« ومن لستم له برازقين »

« لست عليهم بمصيطر »

« قل لست عليكم بوكيل »

فإذا جاءت الباء فى خبر المنفى بأسلوب الاستفهام : أليس . . ألست ؟ لم تكن لتأكيد النفى ، بل تخرجه بيانيًّا من النفى ، إلى تقريرٍ مُلزِم وإثباتٍ مؤكد ، وفى هذا الأسلوب ، تلزم الخبرَ الباءُ المقولُ بزيادتها ، باستقراء كل آياتها :

« أليس هذا بالحق » ؟

« ألستُ بربكم » ؟

« أليس الله بكاف عبده » ؟

« أليس الله بأعلم بالشاكرين » ؟

« أَوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين » ؟

« أليس الله بعزيز ذى انتقام » ؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين » ؟

« أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » ؟

« أليس الصبح بقريب » ؟

وفى آية القلم ، تأتى الباء فى خبر المنفى بما ، فتصير به إلى إنكار باتّ :

« ما أنتَ بنعمة ربك بمجنون » .

* * *

« وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ » .

الأجر فى أصل الوضع اللغوى ، الجزاءُ المادى على عمل أو منفعة ، ومنه الإيجار والاستئجار فى المعاملات . وينتقل إلى الجزاء المعنوى ، فيُخَصّ بصيغة الأجر دون الأجرة التى يغلب استعمالها فى المعاملات .

ثم جاء الأجر فى المصطلح الدينى ، بمعنى الثواب ، ملحوظًا فيه ما يعود من جزاء العمل .

ومن الاستعمال القرآنى للأجر بمعناه الأول ، الأجور فى مهور النساء :

« وآتوهن أجورَهن »

وآيتا القصص فى ابنتى شعيب وموسى :

« قالت إحداهما يا أبتِ استأجِرْه إنَّ خيرَ مَن استأجرتَ القويُّ الأمين »

قال إنى أريد أن أنكحَك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجُرَنى ثمانىَ حِجَج ، فإن أتممتَ عشرًا فمن عندك »

ومن استعماله القرآنى بدلالة مجازية أو اصطلاحية :

« إنْ أجرىَ إلا على الله »

« وَلأجرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا »

« أجرهم عند ربِّهم »

وآية القلم :

« وإن لك لأجرًا غير ممنون » .

ومن معانى المنِّ فى العربية ، ما يوزَن به . والممنون الموزون ، ومنه جاءت المِنَّة بمعنى النعمة ذات القيمةِ والوزن . ومَنَّ على فلان أنعم عليه .

قال الراغب فى (المفردات) : وذلك لا يكون على الحقيقةِ إلا من الله سبحانه وتعالى .

ويلحظ من الوزن ، جاء الممنون بمعنى المحسوب المعدود : منَّ على فلان ، حسبَ عليه ماقدَّم إليه من خير أو منفعة ، وذلك مستقبَح بين الناس ، ومنه القولُ المأثور : « المنةُ تهدم الصنيعة » لأنها تقطع الشكر وتنقص النعمة . وذهب « الراغب » إلى أن المنون . بمعنى المنية ، جاءت من كونها تنقص العدد وتقطعُ المُدد .

والاستقراء القرآنى للمادة ، يرجح ما ذهب إليه الراغب من أن المن لا يكون فى الحقيقة إلا من الله ، إذ يأتى المَنُّ مسنداً إليه تعالى ، فى سياق التفضل والتذكير بنعمه على خلقه . كالذى فى آيات :

« لقدِ مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسِهم »

(آل عمران ١٦٤)

« قال أنا يوسفُ وهذا أخى قد مَنَّ اللهُ علينا » (يوسف ٩٠)

« لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بنا » (القصص ٨٢)

« قالوا إنا كنا قَبْلُ فى أهلِنا مشفقين * فمَنَّ اللهُ علينا ووقانا عذابَ السَّمومِ » (الطور ٢٧)

« ولقد مَنَنَّا على موسى وهرون * ونجيناهما وقومَهما من الكَرْبِ العظيمِ » (الصافات ١١٤)

ومعها آيات : الأنعام ٥٣ ، النساء ٩٤ ، طه ٣٧ ، القصص ٥ ، إبراهيم ١١ .

أما حين يأتى المَنّ فى القرآن مسنداً إلى المخلوقين ، فالسياقُ على وجهِ النهى أو النفى ، كالذى فى آيات :

« ولا تَمْنُنْ تستكثرْ * ولربِّكَ فاصبرْ » (المدثر ٦)

« يَمُنّون عليك أنْ أسلموا قل لا تمنوا علىَّ إسلامَكم بل اللهُ يمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » (الحجرات ١٧)

« الذين ينفقون أموالَهم فى سبيل اللهِ ثم لا يُتبِعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذًى لهم أجرُهم عند ربهم . . . » (البقرة ٢٦٢)

« يَاأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتِكم بالمَنِّ والأذى » (البقرة ٢٦٤)

إلا أن يكون فى نص السياق قرينةٌ صارفة لمنِّ البشر عن وجهه المذموم ، كالذى فى آية « محمد » فى قتال الذين كفروا : « حتى إذا أثخنتموهم فشُدّوا الوثاق فإما مَنًّا بعدُ وإما فداءً حتى تضَع الحربُ أوزارها » والمنُّ فيها بمعنى : إطلاق بغير فدية .

وآية (ص) فى سليمان : « هذا عطاؤنا فَامْنُنْ أو أمسِكْ بغيرِ حساب » ٣٩

وفى تفسير « غير ممنون » بآية القلم ، قال « الراغب » : إنه غير مقطوع ولا منقوص .

ومثله « ابن القيم » فى (التبيان) : غير مقطوع بل هو دائم مستمر .

ومما فسره به « الزمخشرى » :

« غير ممنون به عليك لأنه ثواب تستوجبه على عملك ، وليس بتفضّلٍ ابتداءً ،

وإنما تمُنُّ الفواضلُ لا الأجورُ على الأعمال »[١] .

أنكره « أبو حيان » ورأى فيه « دسيسةَ اعتزال »[٢] .

وكذلك أنكره « ابن المنير الإسكندرى » ، فقال فى (الانتصاف)[٣] :

« . . . ماكان النبى ﷺ يرضى من الزمخشرى بتفسير الآية هكذا ، وهو ﷺ يقول : لا يدخل أحدٌ منكم الجنةَ بعملِه . قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدَنى اللهُ بفضل منه ورحمة . . . لقد بلغ الزمخشرى سوء الأدب إلى حَدٍّ يوجب الحَدَّ ، وحاصلُ قولهِ أن الله لا مِنَّةَ له على أحد ولا فضلَ فى دخولِ الجنة لأنه قام بواجب عليه . نعوذ بالله من الجراءة عليه » .

ونحتكم إلى القرآن الكريم ، فيهدينا تدبرُ ما نقلنا من آيات المن ، إلى أن لله تعالى أن يمن على عباده تفضلاً وتذكيراً بنعمه ، وإنما يُكره المَنُّ من البشر ، حين يكون على وجه التعالى والمحاسبة . ولآية القلم نظائر فى آيات :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » (فصلت ٨)

(ومعها آيتا : التين ٦ ، والانشقاق ٢٥) .

وبها نستأنس فى فهم آية القلم ، فنطمئن إلى تفسيره بأنه أجر غير معدود ولا مشوب بما ينغصه . وليس على الوجهِ الذى ذهب إليه « الزمخشرى » . فالله سبحانه وتعالى يمنُّ على نبيه المصطفى وعلى عباده ، تفضلاً وإنعاماً .

وتنكيرُ « أجر » يفيد الإطلاقَ ، والتعميمَ غيرَ المقيدِ بتعريفٍ يُخصّصه .

* * *

وفى تفسير آية : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

نقل « الإمام الطبرى » قول من فهموها بحديث السيدة عائشة رضى الله عنها ، أنها سئلت عن خلق الرسول ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن .

وقد يرد عليه أن الآية مكية مبكرة من أوائل الوحى ، ولم يكن قد نزل من القرآن الكريم ما تُعرف به القِيَمُ الخلقية القرآنية . . .

---

(١) الكشاف : ٤/١٢٦

(٢) البحر المحيط : ٨/٣٢٦ .

(٣) على هامش الكشاف : ٤/١٢٦ .

وفسرها بعضهم بالدينِ : وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام[١] .

وليس فى القرآن كله ، ما يؤنس إلى استعمال الخلق بمعنى الدين .

وإنما تؤكّد الآية ، ما علم اللهُ من خُلق نبيه المصطفى ، وقد كان منذ صباه معروفاً فى قومِه بسموِّ الخلق ، كما كان فى شبابه فتى قريش أمانة وصدقاً ونبلاً وعفة . أو كما قال عمه أبو طالب فى خطبة زواج محمد من خديجة بنت خويلد :

« أما بعد فإن محمداً ممن لا يوازَن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً »[٢] .

وقالت أم المؤمنين الأولى ، رضى الله عنها ، فى ليلة القدر :

« اللهُ يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابنَ عمٍّ واثبتْ . . . والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتَصِلُ الرحم وتؤدى الأمانة وتصدق الحديث وتحمل الكَلَّ وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »[٣] .

ومعها ما تواتر به الخبر من لقب الأمين الذى أطلقته قريش على محمد بن عبد الله قبل المبعث .

وهذه آية القلم ، من أوائل الوحى : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

شهادة إلهية بعظمةِ خلق المصطفى عليه الصلاة والسلام ، تتوج ما كان معروفاً من مكارم أخلاقه ، وتمنحه القوة على مواجهة المكذبين الطاغين .

* * *

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ » .

أصل الاستعمال اللغوى فى البصر ، للعين الباصرة . ومنه فى القرآن الكريم مثل آيات :

« وما أمرُ الساعة إلا كلَمْحِ البصرِ أو هو أقرب » (النحل ٧٧)

« يكادُ البرقُ يخطَفُ أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه » (البقرة ٢٠)

« قلْ للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » (النور ٣٠)

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢٩/١٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٢٠١ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٢٥٣ . والحديث مخرج فى (الصحيحين) .

« وقل للمؤمنات يغضُضْنَ من أبصارِهن » (النور ٣١)

« فإذا برِق البصَرُ ، وخَسَفَ القمرُ ، وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ »
(القيامة ٧)

« وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ » (الأحزاب ١٠)

« يكادُ سنَا برقِه يذهبُ بالأبصارِ » (النور ٤٣)

ثم قيل للإدراك الثاقب : بصر ، بملحظٍ من قوة التحقيق ونفاذ النظر . واختصت القوة المدرِكة بلفظ البصيرة ، فلا يكاد يقال للحاسَّة بصيرة ، ويقال لذى البصيرة بصير ، ولا يقال فى الحاسة إلا مُبصر.

ومن الأسماء الحسنى البصيرُ ، وليس المبصر من أسمائه تعالى أو صفاته . وأكثر ما فى القرآن الكريم من البصر ، هو من معنى البصيرة ، كالذى فى آيات :

« إن فى ذلك لَعِبرةً لأولى الأبصار » (آل عمران ١٣)

« لقد كنتَ فى غفلةٍ من هذا فكشَفْنا عنك غِطَاءَكَ فبَصَرُك اليومَ حديدٌ »
(ق ٢٢)

« فمن أبصر فلنفسِه ومن عَمِىَ فعليها » (الأنعام ١٠٤)

« لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها » (الأعراف ١٧٩)

« وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » (الأعراف ١٩٨)

« أفأنت تَهدِى العُمْىَ ولو كانوا لا يبصرون » (يونس ٤٣)

« فلما جاءتهم آياتُنا مبصِرةً قالوا هذا سحر مبين » (النمل ١٣)

ويبدو أن استعمال البصر فى رؤية العين ، ملحوظ فيه غالباً ، التمييز ونفاذ النظر ، بشاهد من آيات :

« أفتأتون السِّحر وأنتم تُبصرون » ؟ (الأنبياء ٣)

« وهذه الأنهارُ تجرِى من تحتى أفلا تُبصرون » ؟ (الزخرف ٥١)

« أفَسِحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون » ؟ (الطور ١٥)

« فأغشَيْناهم فهم لا يبصرون » (يس ٩)

ونطمئن إلى أن البصر فى آية القلم ، بمعنى النظر الثاقب المميز والمعرفة

المدركة ، وزمن الفعل فيه منقول إلى المستقبل القريب بحرف السين :
« فستبصر ويبصرون » بأيكم المفتونُ » .

ولا أشق على القارئ بنقل الخلاف بين النحويين فى توجيه آية « بأيكم المفتون » وإعرابها . وقد لخصه « ابن قيم الجوزية » بإيجاز واف ، نراه يغنى هنا ، قال :

« وقد اختُلِف فى تقدير قوله « بأيكم المفتون » فقال أبو عثمان المازنى : هو كلام مستأنف ؛ والمفتون عنده مصدر ، أى بأيكم الفتنة . والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد عُلم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً ، فتعين حصولهُ للآخر . والجمهورُ على خلاف هذا التقدير ، والآية عندهم متصلة بما قبلها ، ثم لهم فيه أربعة أوجه :

أحدها ، أن الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون ، وزيدت فى المبتدأ كما زيدت فى قولك : بحسبك أن تفعل . قاله أبو عبيد .

الثانى : أن المفتون بمعنى الفتنة ، أى : ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنةُ . والباء على هذا ليست بزائدة . قاله الأخفش .

الثالث : أن المفتون مفعولٌ على بابه ، ولكنْ هنا مضافٌ محذوف تقديره بأيكم فتونُ المفتون . وليست الباء زائدة . قاله الأخفش أيضاً .

الرابع : أن الباء بمعنى فى ، والتقدير : فى أى فريق منكم النوعُ المفتون . والباء على هذا ، ظرفية »[1] .

ونقول مع ابن القيم : « وهذه الأقوالُ كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شىء منه . و « ستبصر » مضمَّن معنى تشعر وتعلم ، فعدَّى بالباء . . . وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من قريب فلا تُجِبْ مَن دعاك إليه من مكان بعيد »[2] .

والعربية تستعمل الفتنة حسيًّا فى إذابة الذهب والفضة وصهر المعدن بالنار .

ومن معانى الفتنة فى المعجم : الفن ، والحال ، والابتلاء ، والإعجاب بالشىء ، والضلال والكفر ، والإيقاع بين الناس .

وهى تحتمل فى الآية ، أن يكون المفتون من الابتلاء بالضلال والبغى . ولعلها تحتمل كذلك ما قاله بعض المفسرين من معنى الجنون . وإن يكن حملُ الفتنة على

(١و٢) التبيان فى أقسام القرآن : ٢١٨ ، ٢١٩ .

الضلال أقربَ إلى حِسِّ البيان ، كما أنه أقرب إلى سياق الآية بعده :

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

وقد سبق استقراء الاستعمال القرآنى للهدى والضلال ، فى تفسير آية الضحى « ووجدك ضالاً فهدى »[١] .

وأصلُها فى الضلال عن الطريق أو الاهتداء إليه ، حسيًّا ومعنويًّا . ثم نُقلا إلى الدلالة الإسلامية على الكفر والإيمان ، وهذا هو معناهما الظاهر فى آية القلم ، مع ارتباطها بأصل المعنى الأول ، بلفظ السبيل ، ترشيحًا للاستعارة على المصطلح البلاغى .

وقال الطبرى : « وهذا من معاريض الكلام ، وإنما معنى الكلام : إن ربك يا محمد هو أعلم بك وأنك المهتدى ، وبقومك من كفار قريش وأنهم الضالون عن سبيل الحق »[٢] .

وهذا أقرب من قول الزمخشرى : « هو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون ، أو يكون وعيداً ووعداً بجزاء الفريقين »[٣] .

والآية أمسكت عن ذكر مفضولٍ « أعْلَم » وهذا يطلقه من قيد المفاضلة بين عالم وأعلم ، دون حاجة إلى تأويلِ مفضولٍ تقديرُه عند بعضهم : أعلمَ منكم ، أو أعلم من سواه . . .

* * *

« فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » .

التكذيبُ هنا ، بآياتِ اللهِ ونبوة رسوله عليه الصلاة والسلام .

والإدهان : اللين والتساهل والمداراة . والمداهنة التحايل والملاينة والمداجاة .

وترجع استعمالات المادة وصيغها فى الأصل اللغوى إلى الدُّهْن ، يُتخذ للتليين والتطرية . والدهان الصبغة . والدهين ، المكان الزلق كأنه دُهِنَ بالدهن .

---

(١) فى الجزء الأول من التفسير البيانى .

(٢) جامع البيان : ١٤/٢٩ .

(٣) الكشاف : ١٢٦/٤ .

وفى القرآن من هذا المعنى الأول ، آيتان :

« وشجرةً تخرج من طورِ سَيْناء تَنبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين »
(المؤمنون ٢٠)

« فإذا انشقت السماءُ فكانتْ وردةً كالدهان » (الرحمن ٣٧)

وبملحظٍ من التطرية والتليين جاءت الدلالة المجازية للإدهان ، فى اللين والتساهل ، وشاع استعمال المداهنة فى المداجاة والملاطفة عن غش وخداع ، أو عن تساهل وتفريط .

وفى القرآن من هذه الدلالة المجازية ، آيتان :

« أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنون » (الواقعة ٨١)

وآية القلم : « ودُّوا لو تُدهِنُ فيُدهِنون » .

قيل فى تفسيرها : ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك . أو : ودُّوا لو تلين فى دينك فيلينون فى دينهم . وقيل : ودوا لو تركَنُ إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيالئونك .

وقد نقلها الطبرى ثم قال : « وأوْلاهما بالصواب عندى قولُ من قال : معنى ذلك ، ود هؤلاء المشركون لو تلين لهم يا محمد فى دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلهك » .

واستأنسَ له بآية الإسراء :

« ولولا أن ثَبَّتْناكَ لقد كدتَّ تَركَنُ إليهم شيئًا قليلاً ، إذًا لأذقناك ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ . . . » ٧٤ .

فالإدهان مأخوذ من الدهن ، شبَّه التليين فى القول بتليين الدهن[1] .

وهو غير المداهنة ، التى تحتمل المالأة والمداجاة .

وشُغل نحاة ومفسرون بُعقَدِ الصنعة الإعرابية ، عن لمح سر التعبير بـ « لو » التى تعطى حِسَّ التمنى البعيد من المشركين أن يلين لهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فوقفوا طويلاً عند ثبوت النون فى « فيدهنون » والقاعدة عندهم أنها تحذف على

---

(١) تفسير الطبرى ، جامع البيان : ١٥/٢٩ .

النصب فى جواب التمنى « ودُّوا لو » لتضمنه معنى ليت .

قال الزمخشرى : « عدل به عن ذلك إلى طريق آخر هو على تقدير خبرِ مبتدأ محذوف : فهم يدهنون . أو على المصدرية ، المؤوّلة ، بمعنى : ودّوا إدهانَك ، فهم الآن يدهنون لطمعهم فى إدهانك ؟ »[1] ثم أشار إلى قراءةٍ فى بعض المصاحف بحذف النون : « فيدهنوا » وتخريج القول عندهم على هذه القراءة ، يكون على وجهين : أنه جواب « ودوا » لتضمنه معنى ليت ، والوجه الآخر أنه على توهم أنه نطق بأن ، أى : ودوا لو أن تدهن فيدهنوا[2] .

وجمهور المصاحف على إثبات النون كما صرّح أبو حيان فى (البحر) وإنما جرَّ إلى كل هذه الوجوه من التأول والتقدير ، أنهم عرضوا الآية القرآنية على قواعدهم النحوية ، ثم راحوا يلتمسون الحيل لتسوية الصنعة الإعرابية .

وقد قلت وأقول : ما يجوز أن يُعرض البيان الأعلى على قواعد النحاة ، وإنه الأصل والحجة . ومن ثم تبقى الآيةُ على وجهها ، وتكون الفاء فى : فيُدهنون حرف عطف ، فتثبت النون رفعاً بالعطف على « تدهنُ » والفاء العاطفة لا تفقد ملحظ السببية .

• • •

« وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ • هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ • مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ • عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ • أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ • سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ » .

فى تفسيرنا لآية « لا أقسم بهذا البلد »[3] هدَى الاستقراءُ إلى أن الكتاب المحكم لم يستعمل مادة (حلف) بمختلفِ صِيَغها ، إلا فى الحنثِ باليمين .

وحَلاَّف : صيغة مبالغة من حالف . وقلما تستعمل العربية فى بيانها اسمَ الفاعل من حلف ، فكأن عدولها إلى حلاف ، إيذان بأن من يحنث فى يمينه يدأب على الحنث فلا يتورع من الإكثار من الحِلف ، عادة وطبعًا .

---

(١) الكشاف : ٤ / ١٢٦ .

(٢) أبو حيان : البحر المحيط : ٨ / ٣٠٩ .

(٣) فى الجزء الأول من التفسير اليانى .

وهمَّاز : صيغة مبالغة من الهامز. نقل الإمام الطبرى من أقوالهم فى تأويلها :

« أنه الذى يهمز الناسَ ويضربهم بيده ، لا باللسان .

« وقيل هو المغتاب يطعن فى أعراضِ الناسِ بما يكرهون[1] .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : هماز ، عيَّاب طعان ؛ وعن الحسن : يلوى شدقيه فى أقفية الناس .

ويأتى فى تفسيرنا لسورة الهُمزَة ، بعدُ ، استقراءٌ كامل لمواضع استعمال القرآن للهمْز واللمز ، وتدبُّر لسياق الآيات فيها . وهو يهدى إلى أن الهمز الطعنُ والتجريحُ فى الغيبة ، أما اللمز فيكون مواجهةً صريحة .

والنميمة : الإيقاع بين الناس قصدَ الفتنة والتوريش بينهم بما يلقى العداوة والبغضاء . وأصل النمِّ فى العربية : وسواسُ همسِ الكلام وأثرُ الرّيح فى التراب . ومنه جاءت النمنمة لنقشِ الكتابة وزخرفتها . وأحسبه نُقل إلى دلالته المجازية على الإيقاع والتوريش والفتنة ، بملحظٍ من اعتماد النميمة عادةً ، على زخرف القول والوسوسة به همسًا ، للإيقاع .

وبهذا الحسِّ الأصيل للنميمة ، نفهم « مَشَّاء بنميم » فى الآية ، دون تقييد لنميم بمن ينقل حديثَ الناس بعضهم إلى بعض ، أو المشى بينهم بالكذب كما نقل « الإمام الطبرى » فى تفسيره . بل نؤثر إطلاقه ، كى يدخل فيه كلُّ سعى بين الناس بالشر : بكذب القول أو صدقه ، بنقل حديثِ بعضهم إلى بعض ، أو إهاجةِ أحْقادٍ بينهم وإيقاظِ فتنةٍ نائمة . . .

ومَنَّاع للخير : مبالغة من مانع . وظاهر السياق أن المراد بالخير عمومه المطلق نقيضاً للشر ، دون تحديد له بمنع المال الذى أَلِفت العربية أن تُعبرَ عنه بالشح . والخيرُ كما يكون ببذل المال ، يكون بالتراحم والدعوةِ إلى عمل صالح ، والتواصى بالحق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . .

وفى تفسير آية الضحى « وَلَلآخرة خير لك من الأولى » – بالجزء الأول – تدبُّر لآياتِ الخيرِ فى القرآن الكريم ، هدَى إلى أنه قلما يستعمله بمعناه المادى فى بذلِ

(١) تفسير الطبرى ، جامع البيان : ١٤/٢٩ .

المال ، ونعمِ الدنيا ، إلا بقرينة من صريح السياق كالإنفاق والوصية ، فى آيتى :

« قلْ ما أنفقتم من خيرٍ فللوالدين والأقربين » (البقرة ٢١٥)

« كُتِبَ عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إنْ ترك خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا على المتقين » (البقرة ١٨٠)

وإنما يغلب الاتجاهُ به إلى نقيض الشر ، كالذى فى آيات :

« قولٌ معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »

(البقرة ٢٦٣)

« ولتكن منكم أمةٌ يَدْعُونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . (آل عمران ١٠٤)

« كنتم خيرَ أمة أخرِجَتْ للناسِ تأمرون بالمعروفِ وتنهَون عن المنكر وتؤمنون بالله » (آل عمران ١١٠)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أولئك هم خيرُ البرية »

(البينة ٧)

« ومَن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتىَ خيرًا كثيرًا » (البقرة ٢٦٩)

« وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرِنا وأوحيْنا إليهم فعلَ الخيرات »

(الأنبياء ٧٣)

والعُتُلّ : الجلف الجافى الغليظ . ومن الاستعمال الحسى للمادة فى اللغة : العَتَلة ، واحدة العَتَل : حديدة كأنها رأسُ فأس ، والهراوةُ الغليظة ، والناقة لا تلقح . وعَتَلَه : جرَّه عنيفًا .

وبملحظٍ من الغلظة فى الاستعمال الحسى ، جاءت دلالة العُتُلّ على الجافى الغليظ .

وفى القرآن الكريم من المادة آيتا :

« خذوه فاعتِلوه إلى سَواء الجحيم » (الدخان ٤٧)

« عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم » . (القلم ١٣)

نفهمها بالدلالة اللغوية على الغلظة والخشونة ، مع ما فى اللفظ نفسه من حِسّ الجفوة .

ثم يعطيها السياق القرآنى ملحظًا من رهبة الزجر فى قسوة الأخذ بآية الدخان، ومن الضعةِ والخِسَّة واللؤم، فى عتل زنيم، بآية القلم، بعد وصفه بأنه :

« حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم » .

أما « زنيم » فلم تأت مادةً ولا صيغة، إلا فى آية القلم. ومن معانيها فى اللغة : اللئيم المعروف بلؤمه وشره. ومنه قيل للدعيِّ المستلحَق بقوم ليس منهم، زنيم. وربما كان فيه أيضًا ملحظٌ من دلالة الزَّنَمة، وهى شىء يقطع من أذن البعير فيترك معَلقًا. قاله « الراغب »[1] .

وقد فسَّرها ابن عباس، فى مسائل ابن الأزرق، بولد الزنا. واستشهد له بقول الشاعر :

زنيم تداعاه الرجالُ زيادةً[2]

ونقل فيه « الطبرى » معنى الفاحش اللئيم، والملصَق بالقوم وليس منهم، واستشهد له بقول حسان :

* وأنت زنيم نِيطَ فى آلِ هاشمِ *

وقول آخر :

زنيمٌ ليس يعرف مَن أبوه بغىُّ الأُمِّ ذو حَسَبٍ زنيم

وخَصَّه قوم، منهم الزمخشرى فى (الكشاف) « بالوليدِ بن المغيرة المخزومى، كان دعيًّا فى قريش، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة » مع كلام طويل فى الزنا وخبث النطفة. ونقله « أبو حيان » ومعه : أن الوليد كان له ستة أصابع فى يده. فكأنها الزنمة. ثم علَّق قائلاً : « والذى يظهر أن هذه الأوصاف ليست لمعين، وإنما تصدُق على عامة مَن يتصف بها »[3] .

ونُضيف : إن لفظ « كلّ » فى صدر هذه الأوصاف : « ولا تطع كل حلاف

---

(١) مفردات القرآن : مادة زنم.

(٢) المسألة رقم ٥٧. بتفصيل فى (الإعجاز البيانى ومسائل ابن الأزرق) ص ٣٤٣.

(٣) البحر المحيط : ٨/ ٣١٠.

مهين » يخرج بها من الخصوص إلى العموم المستفاد صراحة من « كل » .

وتفسيره بالفاحش اللئيم ، أولى من تفسيره بولد الزنا : فالقرآن الكريم فى محقه للزنا ، إنما يقصر اللعنة على الزانى والزانية ، لا على أولادهما . والعربية حين استعملت الزنيم لولد الزنا ، لحظت فيه معنى لؤم الأصل وخبث المنبت .

« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » .

واضح أن فتنة المال وجاه العدد ، كانا مدعاة الشر والأثرة والغلظة والبغى ، لكن من المفسرين من ربط الآية بالخطاب فى صدر الآيات قبلها « ولا تطع » قالوا : « كأنه نهاه أن يطيعه من أجل أنه ذو مال وبنين » .

وإليه ذهب الزمخشرى فتأوله : ولا تطِعْه مع هذه المثالب ، لأنْ كان ذا مال وبنين .

وهذا تأول بعيد ينبو عنه الحس ، فما كان ﷺ ، فى عظمة خلقه وكرم سجاياه وشرف نبوته ، مظنة أن يطيع « كلّ حلاف مهين « هماز مشاء بنميم « مناع للخير معتد أثيم « عُتُلّ بعد ذلك زنيم » من أجل أنه ذومال وبنين !

وإنما النهىُ عن طاعة المكذبين وكل حلاف لئيم ، فيما يعرضون من مساوَمات ، والحنثُ فى الأيمان دأبهم وعادتهم ، وتحذيرُ المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من أن يُؤخَذ بما قد يُبدون من إدهان ، احتيالاً على الموقف الصعب ، وقصدَ الفتنة والشر ، مستظهرين بما لهم من مال وبنين .

* * *

« إِذَا تُتلى عَلَيْه آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ » .

جحداً لنبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وتكذيباً بآيات الله تعالى ، وإمعانًا فى البغى والإثم والتجبر والضلال ،

« سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ » .

الآية على وجه الوعيد بالإذلال والإهانة والتحقير ، صدعًا لكبرياء المغتر بماله وبنيه .

والسمة العلامة ، والوسْمُ علامةٌ يُعرف بها الموسوم . ولعل أصل استعماله اللغوى

من الوَسْم وهو أثر الكيّ . والاسمُ علامةٌ مميزة لتعريف الأشخاص . وفى المصطلح النحوى ، يأتى الاسمُ قسيمَ الفعل والحرف .

وأكثر ما تدور المادة على العلامة المميزة ، حِسيًّا ومعنويًّا .

والخرطوم الأنفُ أو مقدمه . وشاع استعمالُه فى الحيوان ، الفيل ، واستعمال الأنف للإنسان . وإذ كان الأنف أبرز ما فى الوجه ، نُقِل إلى الدلالة المجازية على الرفعة والتكريم ، أو الخسة والتحقير ، فقالوا الأنوف والأُنُف ، من الأَنَفَة بمعنى العزة والكبرياء . وكنوا عن المترفع بمثل قولهم : أشمّ الأنف ، وأنفه فى السماء . كما كنوا عن الإذلال بمثل قولهم : أنفُه راغم ، وأنفه فى التراب .

وفى القرآن الكريم ، استعمل الأنف للإنسان على أصل معناه اللغوى فى القصاص بآية المائدة ٤٥ :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعينَ بالعين والأنفَ بالأنف والأُذُنَ بالأذن والسِّنَّ بالسنِّ والجروحَ قِصَاصٌ » .

والعدول عن الأنف إلى الخرطوم فى آية القلم ، فيه ملحظ التحقير والهبوط بآدمية ذلك المفتون الشرير الجافى اللئيم ، إلى دونية البهائم والدواب .

ومن هذا ، يبدو ضَعفُ ما قيل فى تأويله ، بأن معناه : سنُسَوِّدُ وجهه أو نضرب بالسيفِ على أنفه – وأيدوا هذا التأويل بما حلَّ بالوليد بن المغيرة يومَ بدر ! – أو نسم على أنفهِ بسِمَةٍ يُعرف بها كفرُه وانحطاطُ قدره !

نقل هذه التأويلات « الإمام الطبرى » بعد أن ذكر اختلاف أهل التأويل فيه : حقيقة هو أم مجاز؟ وإذا كان حقيقة فهل هو فى الدنيا أو فى الآخرة؟[1] .

ورَدُّ الخرطوم إلى الأنف ، يضيع به سر البيان فى تحقير المغرور الخبيث ، والهبوط بآدميته إلى البهيمية . أما ما نقلوا عن « النضربن شميل » من أنه تأوّله فى معنى « سنَحُدُّه على شرب الخمر » ، ففيه شطَط وبُعد كما ذكر « أبو حيان »[2] .

ووجه الشطط فيه أن حدَّ الخمر لم يكن قد شُرِّع بعدُ لتؤدى الآيةُ معناها من الزجر

---

(١) تفسير الطبرى ، جامع البيان جـ ٢٩ وانظر معه التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٨ سورة القلم .

(٢) البحر المحيط : ٣١١/٨ .

والوعيد والتحقير ، ومن المسلمين مَن حُدُّوا على شرب الخمر بعد أن حُرِّمت ، لا ينفرد به هذا العُتُلُّ الزنيم الكافر ، ليكون فى إنذاره به فرطُ تحقير وإذلال وإهانة !

* * *

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ۝ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ ۝ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝ أَن لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ۝ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ۝ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۝ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۝ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

البلاء المحنة ، والابتلاء الامتحان .

والجنة فى الآية ، على معناها الأول قبل أن تأخذ دلالتها الإسلامية على دار النعيم فى الآخرة . وترجع دلالة المادة فى الأصل اللغوى إلى معنى الخفاء ، يبدو بوضوح فى الجنينِ مختفيًا فى رحم أمه ، والجنون خفاء العقل ، والجِنُّ جنس خفى من المخلوقات ، نقيض الإنس .

ويلحظ الستر فى الخفاء ، قيل جَنَّ عليه الليل . والمِجَنُّ ما يُتخذ درعًا ساترة للوقاية .

وقيل للأرض المغطاة بالشجر والزرع جنة ، ثم نقلت الجنةُ إلى المصطلح الإسلامى فى جنة الآخرة . وهو الاستعمال الغالب للفظِ جنة وجنات فى القرآن الكريم – نحو مائة وعشرين مرة – على أنها جاءت بدلالتها الأولى على الجنة المعروفة فى الدنيا ، مفردة فى تسع آيات ، ومثناة فى خمسُ آيات ، واثنتى عشرة مرة بصيغة الجمع ، لجنات الدنيا . والسياقُ هو الذى يحتكم فى تحديدِ هذه الدلالة .

والصرم : القطعُ ، ومنه حَصْدُ الزرع وجنىُ الثمر . ثم أخذ دلالته المجازية على

الهجر . والصريمُ : المقطوع ، والمحصود . ونقلوا أنه الرماد الأسود بلغة خزيمة ، ورملة معروفة فى اليمن .

والإصباح : الدخولُ فى وقت الصبح أوّلَ النهار .

والاستثناء معروف . وظاهر السياق فى الآية ، على أن أصحاب الجنة أقسموا ليَحصُدُنَّ زرعَ جَنتهم ويقطُفُنَّ كلَّ ثمارها ، لا يبقون منها شيئاً . لكن مِن المفسرين مَنْ تأولوه فى الآية بأن أصحاب الجنة لم يقولوا : « إن شاء الله » حين أقسموا لَيصرمُنَّها مصبحين .

وظاهر النص ، أن خطيئتهم التى أُخذوا بها ، هى التصميم على صرم جنتهم خفية ، والاستئثار بكلِّ خيرها لا يؤدون حقَّ مسكين فيه .

والتخافت : أن يتحدث بعضهم إلى بعض فى خفوت ، قصداً إلى الحيلولة دون سماع أحد لما يتخافتون به .

والحَرْد : المنع ، من حَرَدت السَّنَةُ إذا منعت خيرَها ، وحاردت الناقة إذا منعت دَرَّها . لُحِظَ فيه أن ذلك لا يكونُ إلا عن نفور ، فجاءت دلالة الحَرْدِ على النفور .

والتلاوم : من صيغ المفاعلة ، وذلك بأن يلوم بعضهم بعضًا .

والعربية تستعمل الأوسط والوسَط فى معنى العدْل ، ملحوظًا فيه أنه توازن بين طرفين متباعدين .

والتسبيح ذكر الله ، ونفهمه فى آية القلم : « لولا تسبحون » بمعنى : لولا تذكرون الله فتؤدوا حقه وتشكروا له نعمته .

والطغيان : تجاوز الحد ، وأصل استعماله فى طغيان الماء ، ثم نقل بهذا الملحظ إلى دلالته على الجبروت وتجاوز الحد ، على ما سبق تدبره فى تفسير آية النازعات خطاباً لموسى عليه السلام : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » بالجزء الأول من هذا الكتاب .

* * *

وتوسَّع مفسرون فى تفصيل قصة أصحاب الجنة المذكورين فى سورة القلم ، وخلاصتها أن هذه الجنة كانت لرجل صالح ، حددوا قومه وبلده فقيل إنه من أهل اليمن ، من صوران قربَ صنعاء ، وقيل من أهل الحبشة ، وقيل من أهل الكتاب .

كما حدّدوا زمنه فقالوا : إنه كان بعد رفع عيسى عليه السلام ! وقد كان يستبق من حصاد جنته وثمرها قوتَ سنَتِه ، ويتصدق بالباقى على المحتاجين ، ويترك للمساكين ما يخطئه المنجل من حصاد ، وما يخطئه القطّاف من العنب ، وما يبقى على السباط تحت النخل[1] . وكان بنوه يضيقون بذلك ويحاولون حمله على الشحّ والضن بما يملك . فلما مات قالوا : إن فعلنا ما كان أبونا يفعل ، ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال . وأقسموا فيما بينهم ، حين آن الحصاد ، أن يتسللوا إلى جنتهم فى الصبح الباكر ، ليجنوا ثمرها وأُكُلَهَا لا يبقون منه شيئاً لمحتاج . وفيما هم نائمون ، طاف على جنتهم طائف – قيل فى رواية إنه الشيطان ، وفى أخرى إنه جبريل – اقتلع النخلَ والكرم والشجر ومضى فطاف به حول البيت العتيق تبركاً ، ثم وضعه حيث قامت بلدة الطائف ، وليس فى أرض الحجاز بلدة غيرها فيها الماء والشجر والأعناب !

وتَرَكَ الجنةَ صريمًا جرداء خلاء .

فلما أصبحوا ، تنادوا ليغدوا على حَرْثهم ، وانطلقوا إلى جنتهم متسللين وهم يتخافتون : ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . فما إن رأوها حصيداً قفراً ، حتى ثابوا إلى رشدهم وأدركوا أنهم ضالون . ولما ذكّرهم أوسطهم بما تهاونوا به حين حذرهم من نسيان الله والتفريط فى حق نعمته ، أقبل بعضهم يلوم بعضًا ، وتضرعوا إلى الله أن يغفر لهم ما كان من طغيانهم وظلمهم : « عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون[2] » .

والقرآن الكريم يقدم لنا فى هذه السورة المكية المبكرة ، مثلاً مما سوف يتلوها فى الوحى من قصص الأولين : لا يتعلق فيها بذكر الأشخاص والأزمان والأمكنة إلا ما كان من جوهر القصة وموضع العبرة . وهو إذ يضرب المثل بأصحاب الجنة الذين أنعم الله عليهم فبغوا وظلموا أنفسهم ونسوا الله فحقّ عليهم العقاب والحرمان ، لم يحدد لنا من أى قوم كانوا ، من الحبشة أو من اليمن . ولم يذكر عددهم وأسماءهم ،

---

(١) انظر القصة بتفصيل ، فى تفسير الطبرى : ٢٩/٢٠ ، والبحر المحيط لأبى حيان : ٨/٣١١ ، والتفسير الكبير للفخر الرازى : ٨ .

(٢) انظر الهامش السابق .

ولا حدد زمن القصة : هل كان بعد عيسى عليه السلام أو قبله : كما اكتفى بطائفٍ طاف على الجنة بِلَيلٍ وأصحابُها نائمون . دون أن يشير من قرب أو بعد ، إلى ما يسيغ تلك المرويات الغريبة التى تقول فى « طائف » إنه شيطان ، أو إنه جبريل اقتلع شجر الجنة وكرومها ونخيلها وحمله فطاف به حول الكعبة ثم غرسه فى موضع بلدة الطائف !

ولنا أن نستأنس فى فهم آياتِ القلم ، بآية يونس فى مَثَل الحياة الدنيا :

« . . حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ٢٤ .

* * *

وضمير الجمع فى « بلوناهم » عائد على المكذبين وكل حلاف مهين . . .

وفى المماثلة بينهم فى البلاء وبين أصحاب الجنة ، نقل « أبو حيان » قول من قالوا : « العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة ، هو الجدبُ الذى أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود » أو أن « تشبيه بلاء قريش ببلاء أصحاب الجنة ، هو أن أصحاب الجنة عزموا على الانتفاع بثمرها وحرمان المساكين فحرمهم الله تعالى ، وأن قريشًا حين خرجوا إلى « بدر » حلفوا على قتل الرسول ﷺ وأصحابه ، فإذا فعلوا ذلك رجعوا إلى مكة فطافوا بالكعبة وشربوا الخمور ، فقلب الله عليهم بأن قُتِلوا وأسِروا[1] » .

ويوم بدر قد كان فى السنة الثانية للهجرة ، بعد نزول سورة القلم بنحو خمس عشرة سنة . واضح أن المفسرين نظروا فى تأويلها ، إلى واقع التاريخ بعد نزولها .

وظاهر النص ، على أى حال ، صريح فى ردع غرور كل الطغاة المتجبرين الذين غرتهم فتنة المال وجاهُ العدد وأخذتْهم العزة بالإثم والطغيان ، دون أن يتعلق بخصوص مالق المشركون «فى بدر» فى العام الثانى للهجرة ، من هزيمة ساحقة .

* * *

(١) البحر المحيط : ٣١٨/٨ .

وقوله تعالى :

« كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

يلفت إلى مناط العبرة فيما تلت الآيات من أمر أصحاب الجنة ، ويتجه بها إلى العظة ، والإنذار بما يحيق بالطاغين الظالمين من عذاب معجل فى الدنيا ، « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

والذى أطمئن إليه ، والله أعلم ، أن الضمير فى « لو كانوا يعلمون » لِمنْ « بلوناهم » من الطغاة المكذبين الذين نزلت القصة عبرة لهم ومثلاً ، وليس لأصحاب الجنة الذين أقروا بظلمهم وتابوا وأنابوا ، ورغبوا إلى الله . ويؤنس إلى هذا الوجه فى فهم الآية ، أن القرآن الكريم بعد أن تلا ما كان من بغى أصحاب الجنة وعقابهم ثم توبتهم وضراعتهم ، أمسك عن ذكر مصيرهم ، فأمرُهم متروك إلى علم الله ورحمته . فاتجه النذير إلى مَن تصدوا لرسول الله ﷺ بالتكذيب والتحدى ، وارتبط بالآية قبله : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » كما ارتبط بالآيات بعدها :

* * *

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ » ؟

وفيها يبين القرآن الكريم عاقبة المتقين بعد الذى ساق من عبرة أصحاب الجنة ، ونذيرٍ للطغاة الظالمين ، فيعمد إلى الأسلوب الاستفهامى الذى يخرج عن أصل معناه اللغوى فى طلب الجواب ، إلى الرفض والإنكار : أن يجعل الله المسلمين كالمجرمين . وهو إنكار يحمل من التقرير لمثوبة المتقين المسلمين ومآب العصاة المجرمين ، بقدر ما يحمل من الردع لذوى العقول والبصائر .

والخطاب فى الآيات للمشركين المجرمين من عتاة قريش ، إنكاراً لسفَهِ عقولهم وهزؤاً بضلالِ حُكمهم أَلَهُمْ كتابٌ يدرسون فيه إن لهم ما يتخيرون من دنياهم

وأحراهم ؟ أم لهم أيمانٌ وعهود موثقة على الله سبحانه ، بالغة إلى يوم القيامة ، إن لهم ما يحكمون ؟

أى غرور غرهم بالخالق ، أن يُبقى عليهم ما آتاهم من نعمة يبتليهم بها فكفروا وجحدوا ؟ وأى وَهم تورطوا فيه ، أنهم ما أوتوا الجاهَ والمالَ والبنين إلا لكونهم أهلا للإكرام ؟

« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرَمه ونعَّمه فيقول ربى أكرمَنِ »[1] .

ثم يتجه الخطاب إلى المصطفى ﷺ :

« سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ » .

يضمن أن لهم إلى يومِ القيامة ما يحكمون ؟

وتمضى كل هذه الأسئلة لا تنتظر جوابًا ، وإنما حَسْبُ القرآن الكريم أن يواجههم بها على هذا الأسلوب البيانى ، غضًّا من شأنهم وصدعًا لغرورهم وتحقيراً لكِبرهم . وعدمُ انتظار الجواب عنها ، فيه تعجيز لهم وإفحام ، وفيه كذلك عبرة بالغة لكل ذى سمع وَبصَر .

* * *

ويبدو لى ، والله أعلم ، أن الأمر بالإتيان فى الآية :

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » .

يتعلق به ظرف الزمان فى الآية بعدها :

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ۞ خَاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » .

أى : فليأتوا بشركائهم ، إن كانوا صادقين ، يومَ يُكشف عن ساق . . .

نذيراً صادعاً ووعيداً رادعاً . . .

ومن أغرب ما رُوى فى تأويل ۞ يوم يُكشف عن ساق ۞ أنها ساق الرحمن !

نقل « الطبرى » فى ذلك حديث أبى الزعراء عن عبد الله (بن مسعود) : « يتمثل اللهُ للخلق يوم القيامة حتى يمر المسلمون ، فيقول : مَن تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله

(١) انظر تفسير الآية فى سورة الفجر .

لا نشرك به شيئاً . . . فيقول : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : سبحانه إذا اعترف إلينا عرفناه . قال فعند ذلك يَكشف عن ساق فلا يبقى مؤمن إلا خرَّ ساجداً ، ويبقى المنافقون ظهورُهم طبقٌ واحد كأنما فيها السفافيد ، فيقولون : ربنا ! فيقول ، سبحانه : قد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالمون »[1] .

ونقل « الزمخشرى » من حديث ابن مسعود : « يكشِف الرحمنُ عن ساقه فأما المؤمنون فيخرون سجداً ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً واحداً كأن فيها سفافيد »[2] .

وقد تعلقت المشبِّهة بهذا التأويل ، فهل أعوزهم من بيان العربية أنها ألفت مثلَ هذا الاستعمال المجازى : الكشف عن الساق ، أو التشمير عنها ؛ كنايةً عن التأهب والفزع وقت الشدة والحرب ؟ قال الشاعر :

كَشَفتْ لهم عن ساقِها وبدا من الشرِّ البوارحْ

وقال حاتم الطائى :

أخوالحربإنْعضَّتْبهالحربعَضَّهـا وإن شمَّرت عن ساقها الحربُ شَمَّرا

وقال ابن قيس الرقيات :

تُذهِلُ الشيخَ عن بَنيه وتُبدى عن خِدامِ العقيلةِ العذراء

وقال الراجز :

قد شمرتْ عن ساقِها فشُدُّوا
وجدَّت الحربُ بكم فجِدُّوا

وأى شدة أفظع هولاً على الكافرين من يوم الحساب ، حين يُدعون إلى السجود تعجيزاً وتحسيراً وتقريعاً ، فإذا الفرصة قد فاتت : أضاعوها ظلماً وبغياً حين كانوا يُدعون فى حياتهم الدنيا إلى السجود وهم سالمون قادرون ؟

ولا ضرورة لأن يُحمَل عجزهم عن السجود فى الآخرة ، على العجز الجسدى

---

(١) تفسير الطبرى ، جامع البيان : ٢٤/٢٩ .

(٢) الكشاف : ٤ / ١٣٠ وقال فى تخريجه : رواه الطبرى مختصراً ، وأخرجه الحاكم من طريق سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن ابن مسعود ، فى حديث طويل ليس فيه تصريح برفعه .

فيُتكلَّف لتأويله بأن « أصلابهم تعقم ، أى تُرد عظاماً بلا مفاصل لا تثنى عند الرفع والخفض » أو أن « فقار ظهورهم تُدمَج فتصير فقرة واحدة ، وقد كانوا فى الدنيا سالمى الأصلاب والمفاصل »[1] . « أو أن الخلق يبقون فى الموقف أربعين عاماً ثم يتجلى الله سبحانه وتعالى فيخرون سجداً إلا المنافقين فإنه يصير فقار أصلابهم مثل صياصى البقر . . . ظهُورُهم طبق واحد كأنما فيها السفافيد »[2] .

فذلك ، ومثله كثير ، مما لا يحتمله منهجنا فى الأخذ بنص الآيات البينات ، لفظاً وسياقاً .

والأَوْلى أن يُحمَل العجزُ عن السجود على فواتِ أوان التعبد ومهلة التكليف . ونظيره ما فى آيات الفجر ، فى سياق الحديث عن مصير الطغاة والمفسدين فى الأرض ، وجزاء من ينكصون عن احتمال تبعات التكليف ويأكلون التراث أكلاً لمًّا ويحبون المال حبًّا جمًّا :

« وجىء يومئذ بجهنمَ ، يومئذ يتذكَّر الإنسانُ وأنَّى له الذكْرى * يقول يا ليتنى قدَّمت لحياتى * فيَومَئذٍ لا يُعذِّبُ عذابَه أحَدٌ » .

* * *

« فَذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » ؟

الحديث المشار إليه فى الآية ، هو ما تلا النبى ﷺ من كلمات ربه . ويحتمل أن يكون ما جاء فى سورة القلم من حديثِ الآخرة . وهو ما ذهب إليه « أبو حيان » .

والاستدراج : الأخذ على إمهال درجة درجة ، وقد فسره الإمام الطبرى : وذلك بأن يُمتعهم بمتاع الدنيا حتى يظنوا أنهم مُتعوا به بخيرٍ لهم عند الله فيتمادوا فى طغيانهم ثم يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون[3] .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٤/١٣١ . وأبو حيان : البحر المحيط ٨/٣١٦ .

(٢) الطبرى : جامع البيان ٢٩/٢٤ .

(٣) جامع البيان : ٢٩/٢٨ .

والذى نطمئن إليه ، والله أعلم ، هو أن يكون استدراجهم إلى ما يأتى من التحدى بالمعاجزة ، تلزمهم بها الحجة على إعجاز القرآن ، بعد أن أملى لهم فقالوا فيه ما وسعهم أن يقولوه . ونستأنس لهذا الفهم بآيات الأعراف :

« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين * أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّةٍ إن هو إلا نذير مبين » ١٨٢–١٨٤ .

أمْلَى له : أمهله وأرخَى له فى عنانه ، لتكون الحجةُ ألزمَ والعقابُ أفدحَ . وبغتة الأخذ ، تأتى من قوله تعالى : « من حيث لا يعلمون » .

والأجر : جزاء العمل . وسياق الآية أنه من الأجر المادى ، بشاهد من النص « فهم من مَغرم مثقلون » . ومغرَم مصدر ميمى من الغرم .

وقد أمر الله رسوله ، أن يترك له أمر هؤلاء الطغاة المكذبين ، الذين يجحدون داعى الحق ، وما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يسألهم أجراً على ما يهديهم إليه من خير الدنيا والآخرة ، فيثقلهم المغرم . وما كان عندهم عِلمٌ بالغيب ، ليجادلوه فيما يتلو من وحى ربه :

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ولاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ »

صاحب الحوت هو يونس عليه السلام (الصافات ١٣٩) وقصته طويلة ، نقتصر فيها على ما جاء فى القرآن الكريم ، ولا يكاد فى جملته يخرج عما فى سورة القلم حيث تلفت الآيات إلى جوهر القصة ومناط العبرة ، والخطاب فيها إلى المصطفى ﷺ ، تقويةً له على ما يحتمل من أذى المكذبين ، ورياضةً له على الصبرِ لحكم ربه عن رضًى وتسليم ، لا عن غيظ مكبوت وضيق مكظوم .

* * *

ثم تختتم سورة القلم بهاتين الآيتين :

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ

إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ - وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » .

تأييداً للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، يرتبط بما بدأت به السورة من مثل هذا التأييد الإلهى :

« نٓ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

صدق الله العظيم

obeikandl.com